

تفسير ابن كثير

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ^ج

تفسير سورة ق وهي مكية . وهذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح ، وقيل : من الحجرات . وأما ما يقوله العامة : إنه من (عم) فلا أصل له ، ولم يقله أحد من العلماء المعترين فيما نعلم . والدليل على أن هذه السورة هي أول المفصل ما رواه أبو داود في سننه ، باب " تحزيب القرآن " ثم قال : حدثنا مسدد ، حدثنا قران بن تمام ، (ح) وحدثنا عبد الله بن سعيد أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد سليمان بن حبان - وهذا لفظه - عن عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى ، عن عثمان بن عبد الله بن أوس ، عن جده - قال عبد الله بن سعيد : حدثني أوس بن حذيفة - ثم اتفقا . قال : قدمنا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في وفد ثقيف ، قال : فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة ، وأنزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بني مالك في قبة له - قال مسدد : وكان في الوفد الذين قدموا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من ثقيف ، قال : كان رسول الله [- صلى الله عليه وسلم -] كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا - قال أبو سعيد : قائما

على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام - فأكثر ما يحدثنا ما لقي من قومه قريش ، ثم يقول : لا سواء وكنا مستضعفين مستذلين - قال مسدد : بمكة - فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم ، ندال عليهم ويدالون علينا . فلما كانت ليلة أبطال عن الوقت الذي كان يأتينا فيه ، فقلنا : لقد أبطالنا عنا الليلة ! قال : " إنه طراً علي حزبي من القرآن ، فكرهت أن أجيء حتى أتمه " . قال أوس : سألت أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : كيف تحزبون القرآن ؟ فقالوا : ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل وحده . ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن أبي خالد الأحمر ، به . ورواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدي ، عن عبد الله بن عبد الرحمن ، هو ابن يعلى الطائفي به . إذا علم هذا ، فإذا عدت ثمانيا وأربعين سورة ، فالتى بعدهن سورة " ق " . بيانه : ثلاث : البقرة ، وآل عمران ، والنساء . وخمس : المائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، وبراءة . وسبع : يونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وإبراهيم ، والحجر ، والنحل . وتسع : سبحان ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء ، والحج ، والمؤمنون ، والنور ، والفرقان . وإحدى عشرة :

الشعراء ، والنمل ، والقصاص ، والعنكبوت ، والروم ، ولقمان ، و " الم " السجدة ،
والأحزاب ، وسبأ ، وفاطر ، ويس . وثلاث عشرة : الصافات ، و " ص " ، والزمر ،
وغافر ، و " حم " السجدة ، و " حم عسق " ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والأحقاف
، والقتال ، والفتح ، والحجرات . ثم بعد ذلك الحزب المفصل كما قاله الصحابة رضي
الله عنهم . فتعين أن أوله سورة " ق " وهو الذي قلناه ، والله الحمد والمنة . قال الإمام
أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا مالك ، عن ضمرة بن سعيد ، عن عبيد
الله بن عبد الله ؛ أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي : ما كان رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - يقرأ في العيد ؟ قال : بقاف ، واقتربت . ورواه مسلم وأهل السنن الأربعة
، من حديث مالك ، به . وفي رواية لمسلم عن فليح عن ضمرة ، عن عبيد الله ، عن
أبي واقد قال : سألتني عمر ، فذكره . حديث آخر : وقال أحمد : حدثنا يعقوب ، حدثنا
أبي ، عن ابن إسحاق ، حدثني عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن عمرو بن حزم ، عن
يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة ، عن أم هشام بنت حارثة قالت :
لقد كان تنورنا وتنور النبي - صلى الله عليه وسلم - واحدا سنتين ، أو سنة وبعض سنة ،

وما أخذت (ق والقرآن المجيد) إلا على لسان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان

يقرأها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس . رواه مسلم [أيضا] من حديث ابن

إسحاق ، به . وقال أبو داود : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا

شعبة ، عن خبيب ، عن عبد الله بن محمد بن معن ، عن ابنة الحارث بن النعمان قالت

: ما حفظت " ق " إلا من في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخطب بها كل جمعة

. قالت : وكان تنورنا وتنور رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واحدا . وكذا رواه مسلم

والنسائي وابن ماجه ، من حديث شعبة ، به . والقصد أن رسول الله - صلى الله عليه

وسلم - كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار ، كالعيد والجمع ، لاشتمالها على ابتداء

الخلق والبعث والنشور ، والمعاد والقيام ، والحساب ، والجنة والنار ، والثواب والعقاب ،

والترغيب والترهيب . (ق) : حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور ، كقوله :

(ص ، ن ، الم ، حم ، طس) ونحو ذلك ، قاله مجاهد وغيره . وقد أسلفنا الكلام

عليها ، في أول " سورة البقرة " بما أغنى عن إعادته . وقد روي عن بعض السلف أنهم

قالوا (ق) : جبل محيط بجميع الأرض ، يقال له جبل قاف . وكان هذا - والله أعلم -

من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس ، لما رأى من جواز الرواية عنهم فيما لا يصدق ولا يكذب . وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبسون به على الناس أمر دينهم ، كما افتري في هذه الأمة - مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها - أحاديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وما بالعهد من قدم ، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى ، وقلة الحفاظ النقاد فيهم ، وشربهم الخمر ، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه ، وتبديل كتب الله وآياته ! وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله : " وحدثوا عن بني إسرائيل ، ولا حرج " فيما قد يجوزه العقل ، فأما فيما تحيله العقول ويحكم عليه بالبطلان ، ويغلب على الظنون كذبه ، فليس من هذا القبيل - والله أعلم . وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين ، وكذا طائفة كثيرة من الخلف ، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد ، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم ، والله الحمد والمنة ، حتى إن الإمام أبا محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ، رحمه الله ، أورد هاهنا أثرا غريبا لا يصح سنده عن ابن عباس فقال : حدثنا أبي قال : حدثت عن محمد بن إسماعيل المخزومي : حدثنا ليث بن أبي سليم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس

قال : خلق الله من وراء هذه الأرض بحرا محيطا ، ثم خلق من وراء ذلك جبلا يقال له " ق " السماء الدنيا مرفوعة عليه . ثم خلق الله من وراء ذلك الجبل أرضا مثل تلك الأرض سبع مرات . ثم خلق من وراء ذلك بحرا محيطا بها ، ثم خلق من وراء ذلك جبلا يقال له " ق " السماء الثانية مرفوعة عليه ، حتى عد سبع أرضين ، وسبعة أبحر ، وسبعة أجبل ، وسبع سماوات . قال : وذلك قوله : (والبحر يمده من بعده سبعة أبحر) [لقمان : 27] .

فإسناد هذا الأثر فيه انقطاع ، والذي رواه ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : (ق) قال : هو اسم من أسماء الله عز وجل . والذي ثبت عن مجاهد : أنه حرف من حروف الهجاء ، كقوله : (ص ، ن ، حم ، طس ، الم) ونحو ذلك . فهذه تبعد ما تقدم عن ابن عباس . وقيل : المراد " قضي الأمر والله " ، وأن قوله : (ق) دلت على المحذوف من بقية الكلم كقول الشاعر : قلت لها : قفي فقالت : قافوفي هذا التفسير نظر ؛ لأن الحذف في الكلام إنما يكون إذا دل دليل عليه ، ومن أين يفهم هذا من ذكر هذا الحرف ؟

وقوله : (والقرآن المجيد) أي : الكريم العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . واختلفوا في جواب القسم ما هو ؟ فحكى ابن جرير عن

بعض النحاة أنه قوله : (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ) وفي هذا

نظر ، بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم ، وهو إثبات النبوة ، وإثبات المعاد ،

وتقريره وتحقيقه وإن لم يكن القسم متلقى لفظاً ، وهذا كثير في أقسام القرآن كما تقدم

في قوله : (ص والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق) [ص : 1 ، 2]